فقه الواقع

وأثره في معالجة المشكلات المعاصرة

من خلال تدبر القرآن الكريم

إعداد

د. سامى بن رفعت بن عبد القادر الأشقر

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

ثم أما بعد .....

فإن هذه الفترة التى تعيشها الأمة المسلمة هى من أخطر الفترات وأصعبها فى حياتها إذ تواجه أزمة حادة ملموسة فى العقيدة والأخلاق، وتخبطاً فى ميدان الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، فصار الإسلام نهباً لأعدائه ونزاعاً بين أوليائه، فضاع جوهره وانطمست حقائقه، وأصبح الشباب فى تشتت وضياع .

ومما لا شك فيه أن أهل العلم والذكر، ومن بيده الحل والعقد يتحملون جانباً كبيراً من هذه المسؤولية لعدم توجيه الأمة إلى تدبر كتاب ربها واتباع سنة نبيها – صلى الله عليه وسلم – فانصرف الكثير من الأصول إلى الفروع، ومن التوحد بالكليات إلى النزاع على الجزئيات، وانشغلوا بالفرقة عن الوحدة واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير .

وكان من نتاج ذلك أن انفصمت حقائق الدين عن واقع الأمة، فسارت على غير هدى ومن ثم كان لابد من إعادة النظر فى إحياء تدبر كتاب ربنا وفهم ما فيه من إشارات منهجية لفقه الواقع الذى تحتاجه أمتنا فى هذه المرحلة الفاصلة فى تاريخها، واستلهام هذه الإشارات من الكتاب والسنة، ومن ثم فإذا نظرت فى القرآن الكريم نظرة مدقق متأنٍ وجدت الواقعية منهجاً متكاملاً فيه، مستوعباً لأسلوبه ومعانيه وأوامره ونواهيه،وعِبره وعظاته، ودروسه وأحكامه، فهو واقعى فى كل ما جاء به من تشريع، وما عالجه من قضايا، وما ساقه من سبل هداية، وما حذرنا منه من طرق الضلال والغواية، واقعى فى أحكامه التى جاءت متدرجة متناسقة مع ظروف وأحوال الناس دون مشقة فى التكليف ولا تعنت فى التنفيذ، واقعى فى ضرب الأمثال وسوق قصص الأمم السابقة بما فيها من عظة واعتبار، وهو من فرط واقعيته لا تعقيد فيه ولا التواء حتى لا تصعب ترجمته من آيات مقروءة إلى واقع ملموس يعيش فيه المرء ويحياه، ولا أدل على واقعية أحكامه ويسر شرائعه من قول أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – حين سُئلت عن أخلاق النبى الكريم – صلى الله عليه وسلم – فقالت: "كان خلقه القرآن يرضي لرضاه و يسخط لسخطه"(١) .

---

(١) – شعب الإيمان، البيهقى، ٢ / ١٥٤، فصل " خلق الرسول – صلى الله عليه وسلم –، ورقمه: ١٤٢٨، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ .

الهدف من البحث:

كان هذا البحث لبنة متواضعة فى صرح واقعية القرآن الشامخ، ودعوة للتأمل والتدبر فى آياته وأحكامه، فى محاولة من الباحث لفهم فقه الواقع القرآنى كما احتوته كثير من الآيات والسور المباركة – على النحو الذى سيتضح من خلال البحث – إن شاء الله تعالى .

كما تبرز أهمية البحث إلى حاجة الأمة الماسة إلى العناية بكتاب ربها وسنة نبيها – صلى الله عليه وسلم – إذ فيهما النجاة من القواصم والفوز بالرضوان، فضلاً عن أن علاج كثير من مشكلات الأمة وأزماتها إنما يكمن فى آيات الكتاب ولا يحتاج منا إلا إلى التدبر والتفكر لاستخراج هذا الجوهر المكنون .

والقرآن المجيد يقدم لنا دليلاً هاديًا في بناء هذا العلم (علم فقه الواقع) فهو قد تناول كل ما يعد من عناصر فقه الواقع ومكوّناته، وتناول كل ما أدرج في موضوع هذا العلم، وما يمكن أن نعالج به سائر مبادئه.

وفى هذه الدراسة إشارة إلى سبيل من سبل العلاج وطريق من طرق الرقى والرفعة لهذه الأمة ألا وهو الدعوة إلى تدبر فقه الواقع واتخاذه منهجاً للنهوض بهذه الأمة وتخليصها مما يحيط بها من كيد أعدائها وتآمر المتربصين بها ، مع بيان أن هذا المنهج يحتاج من المسلم إلى إمعان النظر فى كتاب ربه وحسن تدبر إشارات القرآن الكريم وإجادة قراءة رسائل القرآن الكريم إلى الأمة لدوام ثباتها على المنهج الذى ارتضاه الله تعالى لها.

وبما أن هذا الدين هو خاتم الأديان وهذه الأمة هى خير الأمم فى كل العصور والأزمان فكان لا بد من الدعوة إلى عدم إغفال فقه الواقع ونفض التراب الذى تراكم على صرحه من طول الإهمال والنسيان، لأننا اليوم فى أمس الحاجة إلى الفهم العميق لما تدور عليه حياة الناس وما يعترضها من مشكلات، وما النصوص التى تتنزل على واقعهم الذى يحيون فيه، والنظر فى هذه النصوص الشرعية بعين البصر والبصيرة، وتدبرها بنور القلب والعين معاً .

من أجل هذا التصور كانت أهمية هذه الأطروحة التى حاولت الجمع بين رافدين لا غنى عنهما لإعادة إحياء الأمة ونهضتها، الرافد الأول: الدعوة إلى إعادة إحياء فقه الواقع المعاصر وبيان قيمته وحاجة الأمة الملحة إليه إذ فى إحيائه إحياء لخيرية هذه الأمة المباركة، ثم يأتى الرافد الثانى ألا وهو الدعوة إلى إعادة إحياء عبادة التدبر فى كتاب ربنا جل وعلا، وكلا الرافدين متلازمان لا انفصام بينهما، فأصول فقه الواقع مستمدة من القرآن الكريم لكن استخراجها يحتاج إلى تدبر وتأنى، كما أن التدبر يحتاج منا إلى فهم لواقعنا وقراءة القرآن بعقل مستوعب لحاضرنا باحث عن علاج لأمراضنا وحل لمشكلاتنا فى كتاب ربنا، وهذا ما حرصت عليه هذه الدراسة وعملت على تجليته فى ضوء الكتاب والسنة وفق منهج سلف الأمة الصالح رضوان الله عليهم .

التمهيد:

وفيه مباحث:

أولاً: تعريف بأهم المصطلحات الواردة فى البحث، وهى: (الفقه، الواقع، التدبر)

ثانياً: فقه الواقع: المفهوم والضرورة .

ثالثاً: مصادر فقه الواقع

أولا: تعريف المصطلحات:

الفقه:

ورد لفظ الفقه فى القرآن الكريم بمعانى الفهم والإدراك والعلم (١)، ودليله قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ**﴾ الإسراء: ٤٤ ، وقد عرَّفه الجرجاني فى التعريفات بأنه: (عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه) (٢)، وهو درجة أخص من العلم كما بيَّن ذلك الراغب الأصفهانى بقوله: (هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم) (٣)، وقد دعا الرسول – صلى الله عليه وسلم – لابن عباس – رضى الله عنهما – فقال: (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) (٤)

الواقع:

قال ابن فارس فى (مقاييس اللغة): (الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه، يدل على سقوط شئ وتوقعت الشئ: انتظرته متى يقع) (٥)، وفى (اللسان): (وقع على الشئ وأوقع ظنه على الشئ ووقَّعه كلاهما قدَّره وأنزله ووقع بالأمر أحدثه وأنزله، ووقع القول والحكم إذا وجب) (٦)

---

(١) – لسان العرب لابن منظور ١٣ / ٥٢٢، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى .

(٢) – التعريفات للجرجانى، ص ٢١٦، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥ هـ

(٣) – المفردات فى غريب القرآن، الحسين بن محمد الأصفهانى، ٢ / ٤٩٦، مكتبة نزار مصطفى الباز، د. ط . ت

(٤) – المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبرانى، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣ م

(٥) – مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ٦ / ١٣٤– ١٣٥، دار الفكر، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م .

(٦) – لسان العرب ٨ / ٤٠٢

والواقع فى الاصطلاح كلمة يحتاج معناها إلى الإضافة، والمراد بها الأمر الواقع أى الأحداث الحاصلة والأمور النازلة وما يجدُّ من أحداث ووقائع .

التدبر:

التدبر هو لون من ألوان التفكر والتأمل، وهو (النظر فى عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر هو تصرف القلب بالنظر فى الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر فى العواقب) (١) وقد ورد معنى التدبر فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ النساء: ٨٢ وفى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) ﴾ محمد: ٢٤ قال البغوي: (" أفلا يتدبرون القرآن " يعنى أفلا يتفكرون فى القرآن، والتدبر هو النظر فى آخر الأمر، ودبر كل شئ آخره) (٢)، قال الإمام السعدى – رحمه الله – فى هذا الموضع: (يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه وذلك لأن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه ازداد علماً وعملاً وبصيرةً، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٩) ﴾ ص: ٢٩ وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢٤) ﴾ محمد: ٢٤.

ثانياً: فقه الواقع، المفهوم والضرورة :

مما لا يخفى على أحد أن مصطلح (فقه الواقع) لم يظهر بهذا التركيب إلا فى العصر الحديث، فهو من المصطلحات الحديثة التى لم يستخدمها سلفنا الصالح – رحمهم الله تعالى – على هذا النحو، إلا أن فقه الواقع - وإن كان مصطلحاً حادثاً لم يُعرف بهذا الاسم في زمن القرون المفضلة - لكنه في المعنى الإجمالي ليس علماً جديداً، بل هو مأخوذ من القرآن الكريم والسنة المطهرة وكلام سلف الأمة .

---

(١) – القاموس الفقهى لغة واصطلاحاً سعدى أبو جيب ١/ ١٢٨دار الفكر،سوريا، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨ م

(٢) – معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ٢/ ٢٥٤،دار طيبة للنشر، الطبعة الرابعة سنة ١٤١٧هـ .

حيث دلت عليه كثير من آى القرآن الكريم وأرشدت إليه أحداث السيرة النبوية وفتاوى أسلافنا الصالحين .

ولعل من نافلة القول أن هذا المصطلح مكون من كلمتين: الفقه، والواقع، وقد سبق تعريف كل واحدة منهما على حِدة فى المبحث الأول، إلا أنه بإضافة الكلمتين معاً يصير عندنا مصطلح مركب يُعرف بفقه الواقع الذى تعددت تعريفاته ويمكن إجمالها فى التعريف التالى: (علم يُعنى بدراسة المستجدات المعاصرة والظروف الراهنة ومعرفة الأحكام التى تناسبها فى ضوء الشريعة الإسلامية) إذ لا يمكن للمسلم الفطِن أن يعيش معزولاً عن عالمه وواقع عصره، بل لا بد له من الوعى والإدراك للنوازل والمستجدات من غير اصطدام ولا تعارض مع النصوص والثوابت الشرعية .

وهذا ما عبَّر عنه الإمام ابن القيم الجوزية – رحمه الله – حين قال: (ولا يتمكن المفتى ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً، والثانى فهم الواجب فى الواقع وهو فهم حكم الله الذى حكم به فى كتابه أو على لسان رسوله فى هذا الواقع ثم يُطبق أحدهما على الآخر .
فمن بذل جهده واستفرغ وسعه فى ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله) (١) .

وعلى هذا فإن فقه الواقع علم جليل، تبنى عليه كثير من الأحكام، وفي ضوئه تتخذ المواقف المصيرية، و مما هو مقرر في قواعد الشريعة أن: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، وتعظم حاجة الداعية إلى فهم الواقع إذا علم أن من أسباب تخلف الأمة في عصرها الحاضر جهلها بواقعها، وهو كأي علم ينفع الأمة الإسلامية ويساعدها للعودة إلى عزها ومجدها وسؤددها ولذا فجدير بالداعية أن يعتني به أشد العناية من غير إفراط فيه ولا تفريط !!

وهذه الدعوة المخلصة لفهم وحل المشكلات المعاصرة ليست من قبيل الترف الفكرى أو ضرباً من ضروب الاستزادة الثقافية، وإنما صار استنباط فهم الواقع من خلال تدبر كتاب ربنا وسنة نبينا – صلى الله عليه وسلم – فرض كفاية على جموع المسلمين خاصة المشتغلين منهم بالدعوة والتعليم ومخالطة الجماهير، والقائمين على سياسة أمور المسلمين، لأن عدم الفقه فى هذا الباب يسبب ضياعاً لكثير من حقوق المسلمين وتسلط أعدائهم على مقدَّراتهم .

---

(١) – إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم ١/ ٨٧- ٨٨، مكتبة الكليات الأزهرية – مصر، سنة ١٣٨٨هـ .

فقلة وعي بعض الدعاة بظروف أمتهم، وغفلتهم عن واقع دعوتهم، وعدم بصيرتهم بطبيعة أعدائهم وأساليب مكرهم وخداعهم من جهة أخرى، يجعل دعوة كثير منهم تحرِّكها العواطف وتقوم على الشعارات المنفصلة عن الواقع فتكون دعوتهم فى وادٍ وحاجة الأمة فى وادٍ آخر .

كما ستظهر أهمية فقه الواقع من خلال التأمل فى القرآن وتدبر ما فيه من أوامر وتشريعات على ما سيتضح فى المبحث الثانى إن شاء الله تعالى .

ثالثاً: مصادر فقه الواقع:

الأول: القرآن الكريم :

أنزل الله تعالى القرآن الكريم ليكون صلاحاً للأمة ومرشداً لها إلى الهداية والرشاد، وضمَّنه سبل الرقى لها والنجاة من أعدائها، ومن ثم كان لزاماً على أفراد المجتمع المسلم تدبر القرآن واستيعاب إشاراته وتطبيق منهجه، ففيه نجاح الدنيا ونجاة الآخرة .

ولم يغفل القرآن الكريم جانب الواقعية فى حياة الأمة فجاء واقعياً فى كل تشريعاته مستوعباً لظروف الأمة وأحوالها، متدرجاً بما يتناسب مع قدراتها، متوافقاً مع ظروفها (وثوابت فقه الواقع منثورة عبر آيات كثيرة من كتاب الله سبحانه، وفى سنة وسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – فمن أحاط بقواعدها ومهماتها أحاط بأصول فقه الواقع وفروعه ودلائله وتطبيقاته، بل إن كتاب الله كله بسوره وآياته وكلماته، بقصصه وأحكامه بزجره وأمره، إنما نزل دواءاً للواقع، وبياناً للأحكام الطارئة حسب الحوادث، وعلاجاً للأدواء، وحلاً لمشكلات الأمة ومعضلاتها)(١)، وقد ورد فى القرآن الكريم ما يُعد أساساً لهذا العلم ألا وهو قول الله تعالى :﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥** ﴾ الأنعام: ٥٥ ، حيث أشار القرآن الكريم إلى أهمية استبانة وإيضاح طريق المجرمين وأن ذلك من أهداف تفصيل الآيات فى القرآن الكريم وبيانها للأمة، وهو عين فقه الواقع وأساس دعوته لفضح خطط المجرمين وكشفها للأمة .

ولذا يقول ابن القيم –رحمه الله–:" فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية فاستبان لهم السبيلان"(٢) .

---

(١) – فقه الواقع بين النظرية والتطبيق، على بن حسن بن على الحلبى، ص ٢٩، دار النور للنشر، فلسطين، الطبعة الثالثة سنة ١٤٢٠هـ .

(٢) – الفوائد لابن القيم، ص ٢٠١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٣ هـ، ١٩٩٣ م.

ولهذا جاءت كثير من الآيات والسور فاضحة للمشركين كاشفة للمنافقين، ولا يخفى علينا فى هذا السياق تعدد أسماء سورة التوبة وتنوعها لتدل على مضمونها فإن لها كما يقول ابن عاشور – رحمه الله –: (أسماء أخر وقعت في كلام السلف، من الصحابة والتابعين، روى عن ابن عمر عن ابن عباس: كنا ندعوها (أي سورة براءة) "المقشقشة" (بصيغة اسم الفاعل وتاء التأنيث من قشقشه إذا أبراه من المرض)، كان هذا لقبا لها ولسورة "الكافرون" لأنها تخلصان من آمن بما فيهما من النفاق والشرك، لما فيهما من الدعاء إلى الإخلاص، ولما فيهما من وصف أحوال المنافقين، وكان ابن عباس يدعوها "الفاضحة": قال ما زال ينزل فيها "ومنهم – ومنهم" حتى ظننا أنه لا يبقى أحد إلا ذكر فيها، وعن عبيد بن عمير أنه سماها "المنقِّرة" (بكسر القاف مشددة) لأنها نقرت عما في قلوب المشركين (لعله يعني من نوايا الغدر بالمسلمين والتمالي على نقض العهد وهو من نقر الطائر إذا أنقى بمنقاره موضعا من الحصى ونحوه ليبيض فيه.

وعن المقداد بن الأسود، وأبي أيوب الأنصاري: تسميتها "البحوث" – بباء موحدة مفتوحة في أوله وبمثلثة في آخره بوزن فعول – بمعنى الباحثة، وهو مثل تسميتها "المنقرة".

وعن الحسن البصري أنه دعاها "الحافرة" كأنها حفرت عما في قلوب المنافقين من النفاق، فأظهرته للمسلمين وعن قتادة: أنها تسمى "المثيرة" لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها ، وعن ابن عباس أنه سماها "المبعثرة" لأنها بعثرت عن أسرار المنافقين، أي أخرجتها من مكانها.

وفي "الإتقان": أنها تسمى "المخزية" وفيه أيضاً" أنها تسمى "المنكِّلة"، أي بتشديد الكاف وفيه أنها تسمى "المشددة"، وعن سفيان أنها تسمى "المدمدمة" – بصيغة اسم الفاعل من دمدم إذا أهلك لأنها كانت سبب هلاك المشركين)⁽¹⁾ ففى هذا التعدد لأسمائها دليل على اهتمام هذه السورة بكشف أساليب المنافقين وفضح أعداء الأمة لها من باب ﴿ **حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾** ﴾ النساء: ٧١ ، وهو ما سيكون للباحث معه وقفة مفصلة فى موضعه من البحث إن شاء الله تعالى .

الثانى: السنة النبوية المشرفة:

فمما لا يخفى على ذى بصيرة، مدقق فى السيرة، مدى حرص الرسول – صلى الله عليه وسلم – على أمته وفهمه للواقع الذى يعيش فيه، وسيرته وسنته – صلى الله عليه وسلم – حافلة بهذا المعنى،

---

(١) – التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ١٠ / ٦، مؤسسة التاريخ العربى، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م .

والمواقف أكثر من أن تُحصى لكنها تحتاج إلى عقل يحلل ويستنبط من هذه المواقف والأحداث ما يدلنا على أسس فقه الواقع منها .

ولعل من أبرز ما يوضح فهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – لما يدور حوله من أحداث وسياسة العالم من حوله موقفه فى حادثة الهجرة عندما اختار الحبشة – دون غيرها من البلاد – لتكون مقراً لأصحابه المهاجرين معللاً سبب اختياره: (بأن فيها ملك عادل لا يُظلم عنده أحد) (١)، وهو ما ينم عن وعى منه بما يدور من أحوال الأمم وسياسات الملوك من حوله، حتى قارن بين البلاد فاختار أكثرها أمناً والملوك فاختار أكثرهم عدلاً ليرسل أصحابه وهم مطمئنون إلى بُعد نظره وتمام حكمته وفهمه للواقع السياسى المحيط بأمته،كما أننا نجد المرحلية فى الدعوة ملائمة للواقع الذى تمر به، ونجده – صلى الله عليه وسلم – يختار المدينة المنورة مكاناً لهجرته ويتعامل مع جميع الأطراف الموجودة فيها بما يتناسب مع طبيعة المرحلة التى تمر بها الأمة، وقد يتعلل البعض بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – مؤيد بالحق من ربه ويأتيه الخبر من السماء وهذا – وايم الله – هو الحق الذى لا مراء فيه، بيد أنه – مع ذلك – درس من الرسول – صلى الله عليه وسلم - لعامة القائمين على أمور المسلمين من حكام وقادة، وعلماء وساسة، أن يحسنوا فهم واقعهم تجنباً لتوريط أمتهم فى المهالك .

موقف آخر يُدل أعظم الدلالة على فقه النبى – صلى الله عليه وسلم – لواقعه وهو ما يتضح فى إرساله لمعاذ بن جبل – رضى الله عنه – إلى بلاد اليمن حين قال له: (إنك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .....) (٢)، فحدد له الرسول – صلى الله عليه وسلم – معتقد القوم الذين سيفد عليهم حتى يخاطبهم بما يتناسب مع معتقدهم، ويستعد لهم بما يناسبهم، والواجب على الداعية أن يعرف - حقَّ المعرفة - طبيعة المجْتَمَع الذي يُواجِهُهُ بالدَّعْوة، وبقدر معرفة الداعية بواقعه، يكون حكمه على الأحداث من حوله، وإدراكه لكيفية التعامل معها، ونظره إلى عواقبها ومآلاتها وهو ما يدل على معرفته – صلى الله عليه وسلم – بأحوال اليمن وأهلها، مع أن الثابت فى سيرته – صلى الله عليه وسلم – أنه لم يخرج مسافراً قبل البعثة إلا مرتين كلتيهما إلى بلاد الشام فى رحلتى تجارة (٣) .

---

(١) – الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، ١/ ١٨٢، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .

(٢) – سنن النسائى،أحمد بن شعيب النسائي، ٥ / ٥٥، باب إخراج الزكاة من بلد إلى بلد، ورقمه ٢٥٢٢، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ – ١٩٩١ م .

(٣) – خلاصة سير سيد البشر، محب الدين أبي جعفر بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري، ص ٣٥، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

كل هذا وغيره من المواقف التى احتوتها كتب السيرة هى أكبر دليل على أهمية وقيمة التعامل مع الواقع بفقه وفهم وعدم الانفصال عنه، وصدق الله تعالى حين قال:﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب: ٢١ .

الثالث: دراسة التاريخ وسير السلف الصالح

فدراسة سير هؤلاء الأعلام مصدر مهم لفقه الواقع، يتعلم منه المرء كيف عايش هؤلاء الناس دينهم وطبقوه بما يتفق مع واقعهم فسادوا العالم وقادوه، كما أن دراسة التاريخ رافد مهم من روافد فهم فقه الواقع، فإن التدبر فى الماضى يُكسب المرء فهماً لحقيقة الواقع الذى يحياه ويجعله أكثر استشرافاً لمستقبل مفعم بالأمل فيه تجاوز لأخطاء الماضى وفهم لواقع الحاضر، ولا أريد أن أطيل فى هذا الباب ولكنى أكتفى بموقف واحد جمع بين سيرة السلف وحقائق التاريخ وبالمثال يتضح المقال، قال ابن عثيمين – رحمه الله تعالى –: (ويُذكر أن شيخ الإسلام ابن تيميه- رحمة الله عليه- مرّ بقوم في الشام من التتار ووجدهم يشربون الخمر، وكان معه صاحب له، فمرّ بهم شيخ الإسلام ولم ينههم، فقال له صاحبه: لماذا لم تنههم؟ قال: " لو نهيناهم لذهبوا يهتكون أعراض المسلمين وينهبون أموالهم، وهذا أعظم من شربهم الخمر "، فتركهم مخافة أن يفعلوا ما هو أنكر وأعظم، وهذا لا شك أنه من فقهه رحمه الله) (١)، وهذا الفعل منه – رحمه الله – هو قمة فهم الواقع والتدبر فى آيات الله تعالى الآمرة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكن مع الجمع بينها وبين ضوابط هذا الفعل وفق منهج ربانى فريد لا يُلهَمه إلَّا من وفقه الله تعالى وأنار بصيرته .

الرابع: المصادر الإعلامية:

فلا يخفى على أحد ما يعيشه عالمنا اليوم من هذه الثورة الإعلامية والتواصلية حتى صار بالإمكان متابعة أحداث العالم وقت وقوعها لحظة بلحظة، وهو ما يستوجب من المسلم المهتم بقضايا أمته العامل فى ميدان السياسة أو الدعوة ألا يغفل عما يدور حوله من أحداث، إذ صار الحدث يقع فى مشرق الأرض فيؤثر لحظة وقوعه على الاقتصاد فى مغربها، ولذا فإن قلة الوعي في صفوف بعض الساسة والدعاة، وغفلتهم

---

(١) – شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ١ / ٢١٨، باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مدار الوطن، الرياض، طبعة سنة ١٤٢٦ هـ .

عن واقع الدعوة والظروف المحيطة بها من جهة، وعدم بصيرتهم بطبيعة أعدائهم وأساليب مكرهم وخداعهم، وصعوبة تواصلهم مع الأحداث والمتغيرات جعل كثيراً منهم تحرِّكهم العواطف وتخدعهم الشعارات، ويقفون مواقف شتى تجرُّهم في كثير من الحالات إلى الندم والتلاوم، متناسين أن شعار المسلم اللبيب: (لستُ بَخبٍّ، والخَبُّ لا يخدعُني) (١)

المبحث الأول: منطلقات فقه الواقع من خلال تدبر القرآن الكريم

إن القرآن الكريم قد بنى الواقع فى منظومة كاملة تتلازم حلقاتها كلها ليخرج لنا هذا البناء الفكرى الذى نسميه فقه الواقع، لكن الأمر يحتاج إلى تأمل وتدبر لنجد أن فقه الواقع حاضر في كل آيات القرآن الكريم وتشريعاته، (لذا فإن هناك أصلاً عظيماً يجب تصوره وتطبيقه تحقيقاً لهذه الثوابت، وهو التركيز على تلك الأصول الكلية المنبثقة من القرآن والسنة فى كل حين وآن، حتى تكون كالأسس التى يُبنى عليها هذا البنيان ليتم فى ضوئها فهم ومعاملة كل طارئ أو حادث فى كل زمان ومكان) (٢)، بيد أن الأمر يحتاج إلى تدبر فى القرآن لاستخراج منطلقات فقه الواقع من بين ثنايا الآيات ومواطن السور، ولعل من أبرز هذه المنطلقات لفقه الواقع فى القرآن الكريم ما يلى:

أولاً: المكى والمدنى:

إن المسلم القارئ للقرآن لربما سأل نفسه عن الحكمة من تقسيم سور القرآن الكريم إلى مكي ومدني وقد أفاض العلماء فى بيان ذلك، لكن المتأمل فى هذا الباب يلمح منطلقاً هاماً لمراعاة الواقع الذي نزل فيه القرآن الكريم،وهو درس لنا فى فقه الواقع ومراعاة اختلاف الظروف والأحوال، فمن المعلوم بداهة أن واقع المسلمين فى مكة اختلف عنه فى المدينة المنورة وهو ما استدعى هذا التقسيم إلى مكي ومدني لملائمة حال الاستضعاف فى مكة ثم حال التمكين فى المدينة، فقد أمر الله تعالى النبى – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه بالعفو والصفح عن أذى الكفار وأهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿ **فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩** ﴾ **البقرة: ١٠٩** مراعياً لحال المؤمنين ولتطور الشريعة من مرحلة إلى أخرى،

---

(١) – هذا القول ينسب لعمر بن الخطاب – رضى الله عنه –، راجع كتاب العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسى، ص ٣٣ ، دار اقرأ، بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م .

(٢) – فقه الواقع بين النظرية والتطبيق ص ٣٤

فأمرهم بالعفو والصفح حتى يأتى الله بأمره وهو الأمر بالقتال فى مرحلة التمكين بالمدينة المنورة، قال قتادة – رحمه الله تعالى – " أمر الله – عز وجل – نبيه – صلى الله عليه و سلم – أن يعفو عنهم ويصفح حتى يأتي الله بأمره ولم يؤمر يومئذ بقتالهم، فأنزل الله عز و جل في (براءة) فأتى الله فيها بأمره وقضائه فقال: ﴿ **قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ٢٩** ﴾ التوبة: ٢٩ ، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها وأُمِر فيها بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يفدوا بالجزية) (١) .

كما يدخل فى هذا الباب أيضاً هذا التنوع الملحوظ فى موضوعات الآيات وتعدد أساليبها والطول والقصر فيها وغير ذلك من فروق – ذكرتها كتب علوم القرآن الكريم – بين المكى والمدنى .

وهذ الدرس فى غاية الأهمية للدعاة الذين يطئون بدعوتهم أرضاً جديدة حيث يجب عليهم معرفة أحوال وطبائع المدعوين، فضلاً عما يستفيده الساسة والحكام فى هذا الباب من مراعاة اختلاف أحوال الشعوب عبر العصور، وكذا أهل العلم والإفتاء فى مراعاة الفتوى لاختلاف أحوال المستفتين وتباين ظروفهم.

ثانياً: التدرج فى التشريع:

وأبرز مثال عليه فى القرآن الكريم قضية تحريم الخمر وهى من أبرز الأمثلة على قيمة فقه الواقع وتطبيقه فى التشريع القرآنى وهو ما نجم عنه هذه الاستجابة السريعة والفورية من المجتمع المسلم لأمر الله تعالى بالتحريم النهائى للخمر بعد سلسلة من التدرج التشريعى فى حكمها .

وهذه المراعاة هى عين مقصود فقه الواقع فالخمر هى أم الخبائث وأصل المنكرات وكان المجتمع المسلم فى حاجة ماسة لتحريمها درءاً لأسباب المنكرات وتطهيراً له من الخبث، لكن حكمة الحكيم الخبير اقتضت تأجيل ذلك التحريم مراعاة لحداثة الإسلام فى قلوب المسلمين وتأجل التحريم النهائى للخمر حتى استقر الإيمان فى النفوس بالآيات التى نزلت بالعقيدة وبيان الإيمان، فلما تم ذلك واستشرفت النفوس للحكم النهائى بعد طول إعداد، نزل التحريم ليلقى أذناً مصغية وقلوباً واعية، وهذا – وايم الله – من أسس فقه الواقع وركائزه فى القرآن الكريم .

ورضى الله عن أمنا عائشة – رضى الله عنها – حين استوعبت علة هذا التدرج – حتى وإن لم تسمه بما عُرف به بعد ذلك – اصطلاحاً– بفقه الواقع – فقالت: (إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر

---

(١) – الناسخ والمنسوخ، لقتادة بن دعامة السدوسى، ١ / ٣٣، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .

الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع شرب الخمر ولو نزل أول شيء لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا) (١) .

ثالثاً: أسباب النزول:

كما هو مقرر فى كتب علوم القرآن الكريم أن (أكثر القرآن نزل ابتداء لهذه الأهداف العامة، ولكن الصحابة -رضي الله عنهم- في حياتهم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد شاهدوا أحداث السيرة وقد يقع بينهم حادث خاص يحتاج إلى بيان شريعة الله فيه، أو يلتبس عليهم أمر فيسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنه لمعرفة حكم الإسلام فيه، فيتنزل القرآن لذلك الحادث، أو لهذا السؤال الطارئ ومثل هذا يُعرف بأسباب النزول) (٢) .

والمتأمل فى أسباب نزول الآيات يلمح فيها منطلقاً لفقه الواقع يكمن فى اختلاف أسباب النزول حسب المواقف التى نزلت فيها واقتضت نزول الآية لبيان الحكم الشرعى وإزالة اللبس فى النفوس أو إجابة على سؤال، ولذا يُعرَّف سبب النزول بما يأتي: "هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال"، ونزول كثير من آى القرآن الكريم لمناسبة واقع معين يحتاج إلى إيضاح هو من باب فقه الواقع، وبيان ارتباط القرآن الكريم بواقع الناس ولذا تتضح معانى الآيات التى نزلت فى مناسبات معينة بفهم المناسبة التى نزلت فيها .

وهذا درس لمن يعمل فى مجال الدعوة والإرشاد بوجوب عدم الانفصال عن واقع الناس وبيان الحكم الشرعى للقضايا الملحة على الساحة التى يكثر ترددها فى واقع الناس وحياتهم اليومية، وربط الآيات والآحاديث بواقع الأمة وإسقاط الحكم الشرعى على ما يُستجد من أحداث فإن (العبرة — كما هو مقرر عند أهل العلم — بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) (٣) وهذا من جمال الشريعة وانسجامها مع واقع الناس وصلاحيتها للتطبيق فى كل زمان ومكان .

رابعاً: الناسخ والمنسوخ:

---

(١) — سنن النسائى الكبرى، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، ٥ / ٥، ورقمه: ٧٩٨٧ .

(٢) — مباحث فى علوم القرآن، مناع القطان، ٧٥/١، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

(٣) — البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، ٣٢/١، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ .

وهو من أوضح المقاصد على تحقيق فقه الواقع وأولويات المرحلة فى القرآن الكريم، فمن بين أقسامه أن القرآن قد ينزل بحكم يتوافق مع الواقع الذى نزل فيه، ثم إذا تغير الواقع وتبدل الحال نزل حكم جديد فنسخ وأزال الحكم الأول، ولذا يُعرَّف النسخ بأنه: (رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي) (١)، ومن بين حكمته: (مراعاة مصالح العباد، وتطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس)(٢) .

ومراعاة القرآن الكريم لواقع الناس فى أول العهد بالإسلام ثم تغير واقعهم بعد أن رسخ الإيمان فى القلوب واستقرت دعائم دولة الإيمان بما ترتب عليه تغير بعض التشريعات ونسخها بتشريعات جديدة تضمن تحقق مصالح الناس فى المرحلة الجديدة، وهذا – والله – من أوضح الأدلة على تحقق فقه الواقع، ودرس لكل من يتصدى للعمل الدعوى أو السياسى أو التشريعى بأن ما يصلح لأناس بعينهم قد لا يصلح لغيرهم، وما ينطبق فى عصر قد يحتاج إلى بعض التعديل فى عصر غيره، بشرط عدم المساس بالأصول العامة والأُطر العريضة للشريعة وثوابت العقيدة، ومن أجل ذلك حدد لنا علماء الأصول ما يُعرف بمصطلح (المصالح المرسلة) والتى يعنون بها: (هى الأشياء التى لم يشهد لها الشرع بالاعتبار ولا بالإلغاء، ويُعبر عنها بالمناسب المرسل) (٣) وهو ما يكسب الشريعة مرونة فى التطبيق وصلاحية للعيش فى كل زمان ومكان .

خامساً: قصص المرسلين وأقوامهم فى القرآن الكريم:

عرض القرآن الكريم كثيراً من قصص المرسلين وأحوالهم مع أقوامهم، والمتأمل فى هذا القصص يجد دلائل فقه الواقع مبثوثة فى ثناياها، فأصل دعوتهم جميعاً – عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام – واحدة ألا وهى الدعوة إلى توحيد الله – عز وجل – وترك عبادة غيره من الجبت والطاغوت، هذا هو الأصل المشترك بين جميع دعواتهم، لكن يبقى هذا التنوع الفريد بينهم فى أسلوب معالجة المشكلات الأخلاقية والفكرية التى يعانى منها كل قوم على حِدة، يقول الله عز وجل: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾** ﴾ إبراهيم: ٤ فأرسل الله تعالى رسله لإصلاح واقع الناس وتوجيه حياتهم نحو ما فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة، فهذا شعيب– عليه السلام – أرسله الله تعالى لإصلاح واقع ساد فيه الفساد الاقتصادى بعد انحراف قومه عن تعاليم الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ **۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ**

---

(١) – مناهل العرفان فى علوم القرآن، ١/ ١٢٧، محمد عبد العظيم الزرقانى، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦

(٢) – مباحث فى علوم القرآن ١ / ٢٤٦

(٣) – القاموس المبين فى اصطلاحات الأصوليين، د. محمود حامد عثمان، ص ٢٧٢، دار الزاحم – الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢ م .

إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ ﴾ هود: ٨٤ - ٨٦ ، وبعث الله تعالى لوطاً – عليه السلام – لمعالجة الانحرافات الأخلاقية والمشكلات الاجتماعية المنتشرة فى قومه، قال الله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ النمل: ٥٤ - ٥٥ ، ثم إن الشرك بالله تعالى واتخاذ الطواغيت أرباباً من دونه استلزم إرسال موسى – عليه السلام – إلى فرعون وقومه لمعالجة هذا الفساد السياسى الذى خلَّفه تسلط الحاكم وديكتاتوريته، قال الله تعالى واصفاً هذا المناخ السياسي المتردي: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ القصص: ٤ - ٥ ، وفى الفساد الاقتصادي ساق لنا القرآن الكريم قصة قارون، قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ القصص: ٧٦.

لهذا شغلت أنباء الأمم السابقة مجالاً مهماً فى القرآن الكريم من خلال القصص التى تصور واقعاً حياً يستعرضه القرآن علينا كأننا نشاهده لنتعلم منه الدروس ونأخذ منه العبر والعظات، وقد راعى القرآن الكريم حاجة المسلمين الأوائل فى زمن الاستضعاف بمكة إلى مثل هذه النماذج لتكون لهم موعظة وذكرى، قال الله تعالى: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ هود: ١٢٠ ، ثم إسقاط هذه التجارب والقصص على واقعهم ليكون هذا القصص زاداً يثبت قلوبهم ويؤكد على الثقة بنصر الله القريب، قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ يوسف: ١١٠ - ١١١.

ولكل هذه المعانى أمر الله تعالى الخلق بالسير فى الأرض والتدبر فى الكون والنظر فى مآلات الأمم والشعوب، ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الروم: ٤٢ ،

قال العلامة السعدى – رحمه الله –: (والأمر بالسير فى الأرض يدخل فيه السير بالأبدان، والسير فى القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين) (١) .

سادساً: ضرب الأمثال من واقع الناس وبيئتهم:

ومن صور واقعية القرآن الكريم وتفهمه لطبيعة البيئة التي نزل فيها وأعرافهم في آياته كلها، قضية الأمثال القرآنية حيث راعى المشرِّع – سبحانه وتعالى – فيها بيئة الخطاب ووقت ضرب المثل، فالأمثال المكية تختلف في مدلولها وأهدافها عن المدنية، حيث دارت الأمثال المكية على معالجة الأدواء التي ابتلى بها المجتمع المكي، خاصة وأن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان في جدال دائم مع المشركين وبيان لتفاهة آلهتهم المزعومة وتفاهة معتقداتهم المأفونة، وفى خضم هذا الصراع يأتي القرآن الكريم بأروع الأمثلة التي تسفه هذه العقيدة الفاسدة، فيشبه آلهتهم المزعومة التي تعلقوا بها ببيت العنكبوت الذى لا يتماسك أمام نسيم هادئ أو حركة خفيفة، قال الله تعالى: ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١** ﴾ العنكبوت: ٤١ ، وفيه بيان لتفاهة أثرها وخسارة من تمسك بها، وفى موضع آخر شبه القرآن الكريم آلهة المشركين بالذباب فقال: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣** ﴾ الحج: ٧٣.

هذا فى مجال الرد على عبادتهم للأوثان والأصنام، أما فى مجال ركونهم إلى الدنيا والإعراض عن الآخرة، يضرب القرآن الكريم لهم مثلاً على زوالها واغترار الناس بها وانخداعهم بحقيقتها، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤** ﴾ يونس: ٢٤.

أما الأمثال التى نزلت فى المدينة فقد جاءت تعالج أمراضاً فى هذه البيئة الجديدة، وهى فى الأغلب مشكلات اجتماعية وأخلاقية لا عقدية دينية، فاختلفت الأمثال مراعاة لتغير الأحوال، فتحدثت عن مرض النفاق وبينت خطورة المنافقين على أمة الإسلام، فضرب الله تعالى مثلهم بقوله تعالى: ﴿ **مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧** ﴾ البقرة: ١٧ ، كما أن مجتمع

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان، ص ٧٥٥

المدينة الجديد بطوائفه المتعددة عانى من خطر اليهود الذين حملوا العلم ولم ينتفعوا به فاستحقوا هذا التشبيه البليغ ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥ ﴾ الجمعة: ٥ .

وفى هذا الصدد لا يمكن إغفال مراعاة الأمثال القرآنية لمرادفات البيئة العربية ومحتوياتها، فجاءت الأمثال مأخوذة من واقع العرب ومعاشهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩ ﴾ الصافات: ٤٨ - ٤٩ ، فشبه الله تعالى نساء الجنة بالبيض المكنون، كما هو عُرف العرب فى تشبيه كل مصون بالمكنون، ولحب العرب للبياض فى النساء، يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى -: (﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان، وتقول العرب عن اللؤلؤ: " البيض "، كما قال ابن عباس – رضى الله عنهما – " كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ " يقول: اللؤلؤ المكنون)⁽¹⁾، ويدخل فى هذا الإطار ضرب الأمثال بما ينسجم مع البيئة العربية وما هو مشاهد محسوس عند العرب ليكون أدل على المعنى وأثبت فى الذهن، كضرب المثل لأعمال الكفار وخلوها من النفع والفائدة لأصحابها بسراب بقيعة، ومثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة ممتدة الجذور وارفة الظلال، ومثل الذى انسلخ من آيات الله تعالى واتبع هواه كمثل الكلب اللاهث على كل حال، ومثل الصدقات التى لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ولا تستتبع ثواباً لمخالطتها للمن والأذى والرياء كمثل صفوان يغطيه غطاء شفاف من التراب فيصيبه المطر فيتصلب عليه ويصير حجراً صلداً، إلى غير ذلك من أمثلة تدلل على مواكبة الأمثال للظروف الموضوعية للدعوة الإسلامية منسجمة مع بيئتها وقيمها الزمانية والمكانية .

---

(١) – تفسير القرآن العظيم ٤ / ١١

المبحث الثانى: حل بعض المشكلات المعاصرة فى ضوء تدبر فقه الواقع فى القرآن الكريم

لو تدبر المسلمون كتاب ربهم – عز وجل – لوجدوا فيه المنجاة من المهالك والحل لكل المشكلات بأيسر طريق وأقوم منهج، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ الإسراء: ٩ ' يقول الإمام الشنقيطي – رحمه الله – فى أضواء البيان: (وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم. لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة) (١)، ولكن استخراج الحلول واستنباط الطريق يحتاج من المسلم إلى تأمل وتدبر، وأن ينظر فى كتاب الله – عز وجل – نظرة مستيقن بوجود الحل فيه، مع عدم إغفال كثير من الإشارات القرآنية إلى ضرورة تعايش المسلم مع واقعه وفهمه لأسباب المشكلة حتى يضع يده على موطن الدواء بعد تحديد الداء، حتى تعود الأمة إلى المكانة اللائقة بها بين الأمم .

ولكى يحدث ذلك فلابد للأمة من الأخذ بمنهجية القراءة الجامعة بين قراءة القرآن الكريم حق القراءة وتدبره حق التدبر، وإعادة بناء فكر الأمة وتصورها فى ضوء خصائص المنهج القرآنى ومقوماته، وجعل هذا المنهج القرآنى نظام حياة وواقع نحياه، وبذلك تُعاد صياغة العقل المسلم بمعارف الوحى وتتكون لديه رؤية واقعية بمرجعية إسلامية، وحلول شرعية لكل مشكلاته المعاصرة، دونما حاجة إلى محاكاة الآخر واتخاذه قدوة فكرية لنا وسبيلاً لحل مشاكلنا ففى ذلك تجميد لخلود القيم الإسلامية وعالميتها، وقدرتها على الإبداع، وتقديم الحلول الفاعلة لمشكلات الأمة المزمنة، وخروج من هذا الصراع الفكرى والحضارى الذى نحياه بأفدح خسارة وقد حذرنا القرآن الكريم من أن ننجرف إلى الوقوع فى علل الأمم السابقة، وعاب على الذين حفظوا التوراة ولم يتدبروها أو يعملوا بمنهجها، وشبههم بالحمر التى تحمل الأسفار دون أن تفقه ما فيها، حتى لا تنتقل العدوى إلى الأمة الخاتمة، قال الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ ﴾ الجمعة: ٥ .

وفى هذا المبحث سيتعرض الباحث لجملة من المشكلات المعاصرة التى تحياها أمتنا المسلمة مع عرض المنهج القرآنى فى الإشارة لها وبيان كيفية التعامل معها فى ضوء هذا المنهج الرشيد .

المشكلة الأولى: اختلاف القلوب وتنازع الأهواء:

ولا يخفى على عاقل ما تعيشه أمتنا اليوم من فرقة وتنازع وشتات، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، وهذا مستقر على مستوى الشعوب والأفراد، والحكام والمحكومين، فكان هذا الاختلاف من أقوى أسباب

---

(١) – أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطى، ٣ / ١٧ دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م .

الانتكاس والهزيمة وضياع الهيبة وتسلط الأعداء، وقد حذرنا الله تعالى من مغبة الفرقة والنزاع، وبيَّن — جل وعلا — أنها لا تُفضى إلا إلى الخسارة والضياع، قال الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ ﴾ الأنفال: ٤٦ ، يقول صاحب الظلال: (فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه؛ وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار ، فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم - مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة - فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها ، وإنما هو وضع الذات فى كفة والحق فى كفة ، وترجيح الذات على الحق ابتداء)⁽¹⁾، ولخطورة هذه المشكلة على تماسك الأمة ووحدتها فقد أفرد القرآن الكريم لها كثيراً من الآيات التى حللت المشكلة وبينت كيفية العلاج وسبل النجاة منها .

وقد بيَّن الله تعالى — فى سورة الحشر — أن سبب هذا الداء الذى عمَّت به البلوى يكمن فى ضعف العقل وتعصبه لرأيه، فقال الله تعالى واصفاً اليهود: ﴿ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ﴾ الحشر: ١٤ ثم بيَّنت الآية سبب هذه الفرقة والنزاع بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾، ولا شك أن داء ضعف العقل يدفعه إلى إنكار الحق واتباع الهوى والتعصب لحزبه وصمم الآذان والقلوب عن تقبل رأى المخالف أو التفكر فيه، وكلها أسباب دوام الفرقة وملازمة الشقاق، ولا دواء لهذا الداء إلا بإنارة العقل بنور القرآن الكريم وهدى السنة الشريفة، والانضواء تحت لواء الشريعة، وتقديم طاعة الله ورسوله على هوى الأنفس ورأى الرجال، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ آل عمران: ١٠٣ ، قال العز بن عبد السلام — رحمه الله -:(والحبل: القرآن أو الإسلام أو العهد أو الإخلاص له بالتوحيد أو الجماعة، سُمى ذلك حبلاً لنجاة المتمسك به كما ينجو المتمسك بالحبل من بئر أو نحوها،"وَلَا تَفَرَّقُوا" عن دين الله تعالى، أو عن رسوله — صلى الله عليه وسلم -)⁽²⁾ .

كما أوضح القرآن الكريم سبباً ثانياً للخلاف ألا وهو البغى والعدوان ودفع الحق وإنكاره بعد معرفته، وهذا داء الأمم السابقة التى اختلفت بعدما جاءها نور العلم من ربها بسبب البغى فيما بينها، قال الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ البقرة: ٢١٣ .

---

(١) — في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣ / ٤١٥، مطبعة الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ م .

(٢) — تفسير العز بن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، ١ / ١٦٦، دار ابن حزم ، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م .

وقال– عزَّ من قائل–: ﴿ **وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ** ﴾ آل عمران: ١٩ ، فالبغي من أهم وسائل الفرقة والشتات، يقول الفخر الرازى – رحمه الله –: (وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم إلا للبغي بينهم فيكون هذا إخباراً عن أنهم إنما اختلفوا للبغي)[1]، ولذا حث الله تعالى أمة الإسلام على استيعاب هذا الدرس من أهل الكتاب والبعد عن فعلهم فقال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾** ﴾ آل عمران: ١٠٥ ، والمتدبر لهذا النهى القرآنى فى هذه الآية الكريمة يجده قد جاء بعد أمر الله تعالى لأمة الإسلام بالتحرك بالدعوة إلى الله تعالى والحرص على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبيان أن هذا سبيل المفلحين، قال الله تعالى فى الآية السابقة عليها: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾** ﴾ آل عمران: ١٠٤ ولعل في هذا إشارة إلى دور الدعوة إلى الله تعالى فى تعليم الناس الحب والتسامح والمؤاخاة والتلاحم وضرورة البعد عن الهوى وخطورة التعصب والبغى، يقول الفخر الرازى – رحمه الله – فى علاقة هاتين الآيتين الكريمتين ببعضهما: (أنه تعالى لما أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك مما لا يتم إلا إذا كان الآمر بالمعروف قادراً على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغالين ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين لا جرم حذرهم تعالى من الفرقة والاختلاف لكي لا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف وعلى هذا الوجه تكون هذه الآية من تتمة الآية السابقة)[2]، كما أن الدعوة إلى الله تعالى ونشر أحكام الشريعة ومبادئ الملة السمحة وربط المسلم بنور الوحى ونصوص السنة هو من أوكد الحلول لمعالجة تعصب العقل وبغى النفس، وهو النور الذى يكشف عن وجه الحقيقة ساطعاً، ويُرى المسلم الحق حقاً فيتبعه والباطل باطلاً فيجتنبه، قال الله تعالى: ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾** ﴾ الأنعام: ١٢٢.

المشكلة الثانية : الولاء والبراء :

فمن أبرز خصائص المجتمع المسلم أنه مجتمع يقوم على عقيدة الولاء والبراء، فيوالى المسلم الله ورسوله والمؤمنين ويتبرأ من كل عدو لله مكذب لنبيه متبع لغير سبيل المؤمنين، وهذه العقيدة ليست من قبيل

---

(١) – مفاتيح الغيب، الفخر الرازى، ٧ / ١٨٢، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م .

(٢) – مفاتيح الغيب، ٨ / ١٤٨.

الترف الفكرى بل هى فريضة ربانية وضرورة شرعية، ولا أدل على مكانة هذه العقيدة من حرص القرآن الكريم على تقريرها والتأكيد عليها فى أكثر من موضع ، قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨ ﴾ آل عمران: ٢٨ ، كما نهى الله تعالى عن مودة الكافرين وولائهم، قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢ ﴾ المجادلة: ٢٢ .

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى ما يترتب علي تطبيق الأمة لهذا المبدأ فى واقعها، حيث ينتج عن ذلك فهم الأمة لطبيعة العلاقة بينها وبين غير المسلمين وتحريم كل أشكال التبعية لهم، وعدم مناصرتهم وتأييدهم على إخواننا من المسلمين، فالإسلام لا يقبل أن يقف المسلم مع الكافر فى خندق واحد ضد أخيه المسلم، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤ ﴾ النساء: ١٤٤ وهذا كله من أهداف فقه الواقع ومبادئه، فالقرآن ينبه الأمة على خطورة موالاة غير المسلمين، إذ لا خير فيهم ولا نفع يُرتجى للأمة من ورائهم، بل هم على النقيض مما يبدون، فقلوبهم قد امتلأت حقداً وحسداً على أمة الإسلام قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ ﴾ آل عمران: ١١٨ ، قال الإمام الطبري – رحمه الله – فى تفسيره للآية: (فنهى الله المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم ومن مخالَّتهم)⁽¹⁾، وهذا كله من باب تبصير الأمة بواقعها وكشف دخائل نفوس أعدائها مهما تبدو فى ثوب الصديق الناصح، ومع كل هذا الإيضاح من القرآن الكريم لقيمة الولاء والبراء، إلا أن القرآن يضع منهجاً واقعياً للأمة يتناسب مع طبيعة ظروفها من قوة وضعف حسب الزمان والمكان، فتراه يبين أن واقع البراء لا يعنى الصدام أو الخصومة والقطيعة بجانب المجتمعات الكافرة غير المحاربة، فالاتصال بهم ومعاملة هذه المجتمعات تكاد أن تكون ضرورة حياتية فرضتها واقع الأمة السياسى والاقتصادى، ولذا أباح الشرع ألواناً من المعاملات مع هذه المجتمعات غير المحاربة كى لا يقطع

---

(١) – جامع البيان فى تأويل آى القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبرى، ٧ / ١٣٩، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م .

طريق الصلة بهم وما يترتب على ذلك من نفع يعود على الطرفين، فأباح البيع والشراء والزواج من أهل الكتاب وأكل ذبائحهم بشروط شرعية حددها، قال الله تعالى: ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٥)** ﴾ المائدة: ٥ ، كما أمرنا الله تعالى بالعدل معهم وعدم ظلمهم أو التعدّى عليهم فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم طالما لم يحاربونا، قال الله تعالى ﴿ **لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ (٨)** ﴾ الممتحنة: ٨.

ويترتب على تطبيق الأمة لعقيدة الولاء والبراء بهذا الفهم الواقعى المنضبط فى ضوء الكتاب والسنة حمايتها من مكر أعدائها وفهمها لواقعها الحقيقى وتقييم أدائها السياسى والاقتصادى والفكرى على مستوى الدول والأفراد، فضلاً عما تغرسه هذه العقيدة من قيم المحبة والأخاء والألفة والولاء بين أفراد أمتنا وشعوبها وحكامها ومحكوميها، مما سيعود بالأمة إلى مجدها وسالف عهدها موحدة الكلمة مرهوبة الجانب .

المشكلة الثالثة: الوعى بما يدور حولنا :

فالإسلام يأمرنا بعدم الانكباب على أنفسنا والانسحاب من العالم الذى نعيش فيه، بل يطالب المسلم بأن يكون له دور ريادي وقيادي فى هذا العالم، ولن يتحقق هذا إلا من خلال وعى المسلم بما يدور حوله من أحداث ومجريات، وأن ينظر لها من منظار التاريخ والسنن الكونية ويحكم عليها بأدوات الشرع والعقل، ويخضعها لعقيدته التى يؤمن بها ليستنتج مدى تأثير هذه الأحداث والوقائع على كيان الأمة المسلمة.

ولعل من أبرز ما يستوقفنا فى هذا الباب كيف كان المسلمون – فى زمن النبوة وما بعده – يتعايشون مع الأحداث ويتابعون المستجدات، مع نقص وسائل الاتصالات وتبادل المعلومات، ما ورد فى مطلع سورة الروم، قال الله تعالى: ﴿ **الٓمٓ (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ (٤) بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ (٦)** ﴾ الروم: ١ - ٦ ، وكيف بيَّن القرآن فرح المسلمين بنصر الروم على الفرس بعد هزيمتهم فى الجولة الأولى وقد ذكر أهل العلم سبباً لنزول هذه الآيات يوضح ما نؤكد عليه من أهمية وعى المسلم بما يدور حوله من أحداث قال الواحدى فى " أسباب النزول ": (بعث كسرى جيشاً إلى الروم واستعمل عليهم رجلاً يسمى شهريران، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر

عليهم، فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم، وكان قيصر بعث رجلاً يدعى يحنس فالتقى مع شهريران بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب، فغلب فارسُ الرومَ، وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة، فشق ذلك عليهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح كفار مكة وشمتوا، فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: "إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم "، فأنزل الله تعالى : ﴿ ألم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَىَ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾– إلى آخر الآيات) (١)، فهذا الموقف حجة فى باب فقه الواقع وبيان ضرورة وعى المسلم بما يدور حوله من أحداث تؤثر عليه، فقد حزن المسلمون لانتصار الفرس على الروم ثم فرحوا لانتصار الروم على الفرس مع أن الطائفتين كافرتان، لكن وعى المسلمين بأن انتصار عبدة النيران على أهل الكتاب إضعاف لهم ورفع من معنويات مشركى قريش، بيد أن انتصار أهل الكتاب على عبدة النيران إيذان وأمل بقرب انتصار أهل الإسلام الخالص على عبدة الأوثان .

وأذكر فى هذا المعنى – من باب الاستئناس – أمره – صلى الله عليه وسلم – وهو فى مكة أصحابه المستضعفين بالهجرة إلى بلاد الحبشة معللاً سبب تفضيل الحبشة عما سواها من بلاد أرحب وأقرب بقوله: (إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد) (٢)، مع أن الرسول – صلى الله عليه وسلم –كما هو معلوم – لم يسافر إليها قط، ولم ير ملكها أبداً، لكنه – صلى الله عليه وسلم –كان مدركاً للواقع السياسى الذى يحياه، فأرسل أصحابه إلى الحبشة مرتين بناءً على إدراكه للقوى المسيطرة على العالم وقتئذ وطبيعة الحكم فى هذه الممالك مع بعدها الشاسع عن مكة .

ومن هذا يتضح لنا أهمية فهم الواقع ووعى الأحداث من حولنا لما له من أهمية قصوى فى نجاح مسيرة العمل الإسلامى وتفاعلها مع الأحداث والوقائع، وهذا مجال نلمح فيه كثيراً من جوانب التقصير لدى الدارسين والباحثين المعاصرين حيث لم ينل هذا الجانب من الاهتمام ما نال جانب العناية بالفقه الدينى، وربما كانت جهود القدامى فى هذا الصدد أزكى من جهود المحدثين، فقد كانت المذاهب الفقهية فى طور تأسيسها خاصة تقوم على فهم لأحوال المسلمين فى عهدها، ومن ثم انطبع كل مذهب بطابع البلد الذى نشأ فيه، ومن شواهد ذلك أيضاً ما كان للإمام الشافعى – رحمه الله – من مذهب قديم لما كان بالعراق، وآخر جديد لما انتقل إلى مصر، كما كان الإمام مالك – رحمه الله – يراقب واقع المسلمين فى المدينة،

---

(١) – أسباب النزول للواحدى، ١/ ٢٣١– ٢٣٢، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨م / د. ت .

(٢) – هذا المثال سبق ذكره ص ٩ .

ويتعمق فى فهمه ليتخذ منه أصلاً من أصول التشريع، وهو ما عُرِف بعمل أهل المدينة، وعلى غرار هؤلاء الأئمة كان المجتهدون من هذا الجيل فى فقههم للواقع، حتى كانت أدلة عدة من أدلة الأحكام تُشتق من الواقع، مثل المصلحة المرسلة والعرف وعمل أهل المدينة .

المشكلة الرابعة: مبدأ توقع رد الفعل :

فمن بين المشاكل التى تحياها الأمة المسلمة فى هذا العصر تأخر رد فعلها لعدم توقعها فعل أعدائها، وهذه القضية تستوجب على الأمة أن تنتقل من مرحلة رد الفعل إلى مرحلة الفعل ذاته، وأن تُحسن توقع ردود أفعال أعدائها، ولو تأملت الأمة كتاب ربها وتدبرت آياته لوجدت هذا الأمر منتشراً فى كثير من الآيات القرآنية والسنة النبوية، وإلا فلِم لفت القرآن الكريم أنظار المؤمنين إلى رد الفعل المتوقع من اليهود ومشركى العرب فى قضية تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام حين قال – عزّمن قائل -: ﴿ ۞ **سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ١٤٢** ﴾ البقرة: ١٤٢ ، يقول أبوبكر الجزائري: (هذا إخبار بما سيقوله السفهاء من المنافقين واليهود والمشركين قبل أن يقوله، وفائدته، أولاً: تقرير النبوة المحمدية، إذ هذا إخبار بالغيب فكان كما أخبر، وثانياً: توطين نفس الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به حتى لا يضرهم عند سماعه من السفهاء، لأن مفاجأة المكروه أليمة شديدة، فإن ذهبت المفاجأة هان الأمر، وخف الألم، وهذا من باب "قبل الرمي يراش السهم") (١)، ويدخل فى هذا الباب آيات أخرى كثيرة تدور حول هذا المعنى السابق من تنبيه الأمة لرد فعل أعدائها لتكون أكثر استعداداً وأقوى إعداداً، مثل قوله تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٖ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨** ﴾ الأنعام: ١٤٨ ، وكقوله تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعَۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١١** ﴾ الفتح: ١١ ، وقوله تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥** ﴾ الفتح: ١٥ ، وقد وعى الرسول – صلى الله عليه

---

(١) – أيسر التفاسير، جابر بن موسى أبو بكر الجزائرى، ١ / ١٢٤، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

وسلم – وظهر هذا الفهم والتوقع لرد فعل الأعداء فى أكثر من موضع فى سيرته المباركة، ومن ذلك لما بلغه – صلى الله عليه وسلم – قول رأس المنافقين عبد الله بن أُبى بن سلول: ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ قال الطبرى – رحمه الله –: (فسمع بذلك زيد بن أرقم، فأخبر به رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، فدعاه رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم، فسأله عما أخبر به عنه، فحلف أنه ما قاله) (١)، فنزلت الآية مصدقة لكلام زيد ومكذبة لهذا المنافق، فلما علم عمر بن الخطاب بذلك (قَالَ عُمَرُ دَعْنِى أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ: " دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ ") (٢) .

ولعل من نافلة القول أن عدم توقع ردة فعل الأعداء يدخل فى باب ضعف العقل وقلة الفقه الذى وصف الله تعالى به الكفار مبيناً سبباً من أسباب عدم انتصارهم وثباتهم مع كثرة عددهم وقوة عدتهم أمام جيش الإيمان مع قلة عدد المسلمين ونقص عدتهم، قال الله تعالى فى هذا السياق: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥** ﴾ الأنفال: ٦٥ وعدم الفقه بمعناه الواسع لا يقتصر على انعدام العقل بأحكام الدين بل يشمل تدابير الدنيا أيضاً، ولذا فإن أمتنا فى حاجة إلى مزيد من الحكمة والتدبر، والتريث والتوقع لتصرفات أعدائها وردود أفعالهم قبل الإقدام على الفعل ذاته ليكون الفعل منها مدروساً ورد الفعل من أعدائها متوقعاً.

المشكلة الخامسة: سوء الظن وتعجل التهمة :

وهذه المشكلة لها أبعاد متعددة شرعية وأخلاقية وسياسية واجتماعية، وهى قضية من القضايا الخطيرة ذات التأثير السلبى على طبيعة العلاقات بين الأفراد والجماعات، والحكام والمحكومين، فسوء الظن من المهلكات وهو من أشد الآفات فتكاً بالأفراد والمجتمعات، ولا يخفى على أحد أثر سوء الظن على قطع علائق الألفة وأواصر المودة وبث الشحناء وروح البغضاء، ولذا حذرنا الله تعالى من هذه الآفة تحذيراً مباشراً، فقال الله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢** ﴾ الحجرات: ١٢ .

---

(١) – جامع البيان، ٢٣ / ٣٩٧ .

(٢) – صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، ٨ / ١٩، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، ورقمه ٦٧٤٨، دار الجيل، بيروت – لبنان .

والمتدبر لآى القرآن العظيم يجد بين ثناياها معالجة حكيمة لهذا الداء العضال، فما من داء إلا وله فى القرآن دواء مصداقاً لقول العزيز الحكيم: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ الإسراء: ٨٢ ولعل من أبرز إشارات هذا المنهج القرآنى الحكيم فى علاج هذه الظاهرة المهلكة ما يلى:

– التماس أسباب البراءة:

وقد ظهر هذا في قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ التوبة: ١١٧ ، والمتدبر لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ يلمح فيه أسباب البراءة ونزول التوبة من الله عليهم، فهذه الساعة سُميت بالعسرة وكأنها ظرف استثنائى وضعه القرآن الكريم بين يدى القارئ ليُشركه معه فى تخيل الوقائع والأسباب التى أدت إلى البراءة ويكفى أنها جُمِّعت فى هذا الوصف الدقيق بساعة العسرة، يقول أبو السعود – رحمه الله – فى تفسيره: (تنبيه على أنه يُتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة، والمراد أنه تاب عليهم لكيدودتهم)[1].

ويدخل فى هذا الباب نهى الله تعالى المؤمنين عن التعدى على طائفة من أهل الكتاب لم يقاتلوا المسلمين ولم يمدوا لهم يد الأذى، فأمرهم الله تعالى بالبر والعدل فى التعامل معهم وعدم تسويتهم بطائفة أخرى من بنى جلدتهم قاتلوا المسلمين وأوقعوا بهم الضرر، قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الممتحنة: ٨ - ٩ ، وقد جاءت العلة ﴿لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ سابقة لذكر الحكم الإلهى ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ لتعليم الأمة وضع أسباب البراءة والتماسها قبل الشروع فى إصدار الأحكام على الآخرين .

– عدم التعجل فى التهمة:

فعلى المسلم التأني والتريث في قبول الأخبار، وعدم المسارعة إلى تصديقها، أو رفضها وردها، بل على العاقل أن يتعامل مع ما يرد إليه من أخبار "بموضوعيةٍ ومنهجية، (فالمسارعةُ بقبولها سذاجةٌ، والمسارعةُ

---

[1] (١) – إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، ٤ / ١٠٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د.ت .

بتكذيبها جهلٌ وعنادٌ، فلا بد للإنسان أن يتمهل، وأن يتثبَّت ويتبيَّن من تلك الأخبار، وأن يفحصها ويتأكد منها، وبعد ذلك يأخذها إن ظهر له صدقها، أو يرفضها إن ظهر له كذبها)(١)، وهذا ما دعانا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦** ﴾ الحجرات: ٦ .

ولهذا الخُلُق شواهد من القرآن الكريم تتضح فى قصة داود – عليه السلام – لما اختبره ربه فى قضية الخصمين اللذين تسورا عليه المحراب، فتعجل داود – عليه السلام – فى إصدار حكمه بعد أن سمع من طرف ولم يسمع من الطرف الآخر، وحكم لصالح من سمع منه دون تمهل ولا تثبت، فعاتبه الله تعالى فى ذلك وروى قصته فى كتابه الكريم لتكون درساً للأمة فى التثبت وعدم التعجل فى إصدار الأحكام، قال الله تعالى: ﴿ **۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦** ﴾ ص: ٢١ - ٢٦ ، قال الجزائرى فى الدروس المستفادة من الآيات: (حرمة إصدار القاضي أو الحاكم الحكم قبل أن يسمع الدعوى من الخصمين معاً إذ هذا محل الفتنة التي كانت لداود عليه السلام)(٢) .

- تغليب حسن الظن على سوء الظن:

وهذا مما يعين على علاج سوء الظن المنهى عنه، وفيما أورده القرآن الكريم من قصة سليمان – عليه السلام – مع الهدهد ما يبين ذلك حيث لم يظن سليمان بالهدهد ظن السوء، بل عبَّر عن فقدانه وتغيبه عن موضعه بألطف عبارة وأحسن تعبير كما حكى القرآن الكريم عنه، بقوله:﴿ **وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠** ﴾ النمل: ٢٠ فقدَّم جانب الصدق على جانب الكذب، وهذا هو ما يتناسب مع حال المسلم الذي يُعامل الناس بحسن الظن وعدم الشك والريبة فيهم، إن الأصل في تعامل

---

(١) – القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، د. صلاح الخالدى، ٣/ ٥٣٥، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، سنة١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

(٢) – أيسر التفاسير ٤ / ٤٤٤ .

بعض الناس مع إخوانه سوء الظن فيهم إلا أن يثبت العكس، وهذا ما يتنافى مع خُلق الإسلام وتعليم السنة والقرآن، فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث...) (١)، قال النووي في شرحه للحديث: "إن المحرم من الظن ما يستمر صاحبه عليه ويستقر في قلبه دون ما يُعرض في القلب ولا يستقر فإن هذا لا يُكلف به"(٢) .

المشكلة السادسة: ضعف المسلمين فى العدد و العدة عن مقاومة الكافرين:

وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها، فبيَّن أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو بصدق التوجه إلى الله تعالى وقوة الإيمان به والتوكل عليه لأن الله قوى عزيز، فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا .

ومن منهج القرآن فى بيان ذلك:

أن الكفار لما ضربوا على المسلمين ذلك الحصار العسكرى العظيم فى غزوة الأحزاب المذكور فى قوله تعالى: ﴿ **إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ (١٠) هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١)** ﴾ الأحزاب: ١٠ - ١١ ، كان علاج هذا هو اللجوء إلى الله تعالى فمع شدة الحصار العسكرى والاقتصادى وقوة أثره فى المسلمين، قابلوا هذا الأمر العظيم بشدة اللجوء إلى الله تعالى واليقين فى نصره، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)** ﴾ الأحزاب: ٢٢ ، فكان هذا اليقين فى الله والثقة فى نصره وحسن التوكل عليه هو سبب النصرة والتأييد وعون الله تعالى لهم، قال الله تعالى: ﴿ **وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا (٢٧)** ﴾ الأحزاب: ٢٥ - ٢٧ ، وما خلَّد القرآن الكريم هذه المواقف للقصة والحكاية، بل لأخذ العظة والدراية، فإذا أحسنت الأمة الثقة بالله تعالى واطمأنت إلى عظيم فضله، كانت عناية الله بهم محيطة وجاءهم المدد والتأييد من حيث لا يتوقعون، فما نصر الله تعالى المؤمنين يوم

---

(١) – صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج،، ٤/١٩٨٥،كتاب (البر والصلة والآداب)، باب (تحريم الظن والتجسس والتنافس ونحوها)، ورقمه: ٢٥٦٣.

(٢) – المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي،، ١٦/ ١١٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ .

الأحزاب إلا بالملائكة والريح قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا (٩) ﴾ الأحزاب: ٩ وهما من جنود الله تعالى﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ (٣١) ﴾ المدثر: ٣١.

ويدخل في هذا الباب أيضاً حديث القرآن عن إخلاص أهل بيعة الرضوان وصدق توجه قلوبهم إلى الله تعالى فعلم ما في قلوبهم وهو أعلم بهم من أنفسهم فكافأهم بالتأييد والسداد، وحسن العون والإمداد، فكان فتح الله والنصر القريب، قال الله تعالى: ﴿ ۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا (١٨) ﴾ الفتح: ١٨ قال ابن كثير – رحمه الله – فى تفسير الآية:(وقوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة ﴿ فَأَنزلَ السَّكِينَةَ ﴾: وهي الطمأنينة، ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾: وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا (١٩) ﴾ الفتح: ١٩ فإذا علم الله من العبد الإخلاص والخضوع إليه– سبحانه– أعانه، فقواه بعد عجز وأغناه بعد عِوز، قال الله تعالى فى نفس هذا السياق:﴿ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا (٢١) ﴾ الفتح: ٢١ فالله تعالى يخبر أنه قد اطلع على ضعفهم وعدم قدرتهم، وقوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ أى لا قدرة لكم عليها وهذا يعم سلب جميع أنواع القدرة لأن النكرة فى سياق النفى تدل على عموم السلب وشموله لجميع أفراد جنسه الداخلة تحت هذا العنوان، كما هو معروف فى هذا الباب، وبهذا تقرر أن جميع أنواع القدرة مسلوبة منهم، ولكن الله تعالى أحاط بعجزهم وعدم قدرتهم مع حسن توكلهم وقوة يقينهم فى أن الله ناصرهم فأقدرهم الله تعالى على ما عجزوا، عنه، قال صاحب الظلال في قوله تعالى: ﴿ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا (٢١) وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (٢٢) ﴾ الفتح: ٢١ - ٢٢ (كذلك يمن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه لم يقدروا عليها بقوتهم، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها، وكان الله على كل شيء قديرا﴾.

فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غيب الله أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضا والتطلع والاستبشار .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة، والغنيمة التي قد أحاط الله بها، وهم في انتظارها، يقرر لهم أنهم منصورون؛ وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف . أو لأن المشركين أقوياء . ولكنه تم لحكمة يريدها . ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا . فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة:

﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً . سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ . .

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل، فأية سكينة وأية ثقة وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود ؟ وهي سنة دائمة لا تتبدل، ولكنها قد تتأخر إلى أجل ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم، أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين لتكون له قيمته وأثره، أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله، ولكن السنة لا تتخلف والله أصدق القائلين: ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾)(١) .

ويدخل فى هذا الباب أيضاً شبهة تتعلق بواقع المسلمين ويكثر ترددها على الألسنة أو القلوب ألا وهى سؤال بعض المسلمين " ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ فلم يتسلط الكافرون على المسلمين فى أكثر من موضع بالقتل والإيذاء والطرد والتشريد، وأينما يممت وجهك شرق الأرض أو مغربها وجدت دماً مسلماً يراق وعرضاً مصوناً ينتهك وبلداً آمناً يحتل وديارًا عامرة تخرب ؟ فلم لا ينصرنا الله تعالى ونحن حزبه وعلى دينه الذى ارتضاه للناس ؟

والجواب على ذلك يحتاج إلى أن يعيش المسلم واقعه بصدق وأن يعرف موضعه من دين الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتحقيقه لشروط العبودية والتمكين .

وقد أورد القرآن الكريم هذه الشبهة لما استشكلها أصحاب النبى – صلى الله عليه وسلم – يوم أحد إذ قُتِل منهم سبعون على رأسهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم النبى - صلى الله عليه وسلم – وجُرِح الرسول – صلى الله عليه وسلم – وشُجت رأسه وكُسِرت رباعيته كما هو معلوم فى كتب السيرة، فاستشكل المسلمون هذا الأمر وسألوا أنفسهم السؤال ذاته الذى يتردد اليوم بين جموع المسلمين، فكان الرد القرآني عليهم واضحاً ﴿ **أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥** ﴾ آل عمران: ١٦٥ فإذا كانت المعركة قد انتهت فى الميدان فليبدأ القرآن المعركة فى ميدان النفس ليربيها ويهذبها ويبين أن النصر أو الهزيمة مقترنان بانضباط النفس على المنهج واستقامتها على

---

(١) – فى ظلال القرآن ٦ / ٤٨٢-٤٨٣ .

الطريق، يقول العلامة السعدى – رحمه الله -: (﴿ قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهُزمنا؟ ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم .) ^(١) .

وثمة سبب آخر يكمن وراء هذا الابتلاء ألا وهو تمييز الصف المسلم وتنقيته من أدعياء الإيمان المندسين بين الصفوف المظهرين للأمة خلاف ما يبطنون، فيأبى الله تعالى إلا أن يفضح سريرتهم ويخرج مكنونات قلوبهم لينكشف أمرهم ويفتضح بين الناس تدبيرهم، وكم هى المواقف العصيبة التى مرت بها أمة الإسلام فلم يثبت فيها إلا الصفوة المنتقاة، وانكشف غطاء المنافقين والمتربصين، المتلونين بكل الألوان، الآكلين على كل الموائد قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ (٢) وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ (٣) ﴾ العنكبوت: ١ - ٣ ، وهذا ما بينه القرآن الكريم فى أكثر من موضع لعل من أبرزها يوم الأحزاب وإرجاف أهل النفاق فى المدينة وتثبيطهم الهمم وتفتيتهم لوحدة الصف المسلم ونشرهم الشائعات والأكاذيب، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٌ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولًا (١٥) ﴾ الأحزاب: ١٢ - ١٥ (ويكفى أن الله تعالى أنزل فى فضحهم وكشف سرائرهم سورة فاضحة لهم مقشقشة أى مبرئة لصف المجتمع المسلم من خبث المنافقين، ألا وهى سورة (التوبة) يقول النيسابورى: (ومن أسماء هذه السورة (براءة) وذلك واضح، و (التوبة) لأن فيها ذكر التوبة على المؤمنين، و (المشقشقة) لأنها تقشقش من النفاق أي تبرئ منه،و (المبعثرة)، و (المثيرة)، و (الحافرة)، و(الفاضحة)، و (المنكلة) و (المشردة)، و (المخزية)، و (المدمدمة) لأنها تبعثر عن أسرار المنافقين تبحث عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتنكلهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم) ^(٢) .

فضلاً عن نزول سورة كاملة تحمل اسمهم وهى سورة (المنافقون) وما هذا إلا من واقعية القرآن فى كشف الزيف وتأكيد الحقائق وتجليتها للمجتمع المسلم من باب ﴿ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ ﴾ النساء: ١٠٢ .

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١ / ١٥٦ .

(٢) – غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ٣ / ٤٢٧، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .

وختاماً .....

فقد كان هذا العرض غيضاً من فيض لبعض مشكلات المجتمع المسلم وبيان علاجها وفق منهج فقه الواقع المستَخلص بالتدبر والتفكر فى كلام الله تعالى الذى أنزله لإصلاح شئون حياتنا ونجاة آخرتنا، وما ذلك إلا دليل على مناسبة الشريعة الغراء لحياة المكلفين وواقعهم، يقول الشاطبى فى (الموافقات) (فإنها لو كانت موضوعة بحيث يمكن أن يختل نظامها لم يكن التشريع موضوعاً لها لكن الشارع قاصد بها أن تكون مصالح على الإطلاق، فلا بد أن يكون وضعها على هذا الوجه أبدياً وكلياً وعاماً فى جميع أنواع التكليف والمكلفين وجميع الأحوال والمصالح المجتلبة شرعاً والمفاسد المستدفعة ...) (١) .

---

(١) – الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبى ٢ / ٢٩، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط.ت .

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن والاه ... وبعد

فبعد أن طوفنا فى هذا البحث المبارك فى آى القرآن الكريم وهدى سيد المرسلين – صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين – ليبين الباحث أهمية التدبر والتفكر وقراءة القرآن الكريم بعين البصر والبصيرة لنستخرج منه أمارات فقه الواقع وحلولاً لبعض المشكلات المعاصرة التى تعانيها الأمة فى واقعها وتؤثر سلباً على مسيرتها وتقدمها وتعبيدها الناس لله رب العالمين .

وقد خلص البحث إلى عدد من النتائج يمكن أن نجمل أهمها فيما يلى:

١– أن تدبر القرآن والتفكر فيه مفتاح كل خير، وهو مطلب شرعى للاستفادة مما حواه القرآن الكريم من علوم ومعارف، وهدى ولطائف، مصداقاً لقول الله عز وجل: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) .

٢– مصادر فقه الواقع متنوعة متعددة وأصولها الكتاب والسنة وكتب وأقوال سلف الأمة ، وكذا منها المصادر المعاصرة المتنوعة، لكن أبرز هذه المصادر دلالات القرآن الكريم والسنة النبوية ويكفينا فى هذا المقام سورة (التوبة) بما حوته من حديث عن طوائف تعاصر المسلمين من المنافقين والمشركين ثم فضحها لكيدهم وكشفها لدخائل نفوسهم ليحذرهم المسلمون ويستعدوا لكيدهم .

٣– أننا لا نستحدث فقهاً جديداً يهتم بالواقع، فهو موجود، لكننا نحتاج إلى مزيد عناية به حيث يتصور بعض طلاب العلم أن فقه الواقع علم جديد وثقافة حديثة، وهذا قصور فى التصور ونقص فى العلم، لأنه متأصل فى القرآن الكريم والسنة المباركة وكلام سلف الأمة، وهو علم أصيل تُبنى عليه كثير من العلوم والأحكام، وفى ضوئه تُتخذ كثير من القرارات المصيرية فى حياة الأمة .

ومن هذا المنطلق كان جهلنا بواقعنا سبباً رئيساً من أسباب ضعفنا وتكالب الأعداء علينا، حيث أدركوا انشغالنا بأنفسنا عن مخططاتهم، وبدنيانا عن ديننا، فلا ديننا يبقى ولا ما نعمِّر.

٤– أن المتدبر للقرآن الكريم يجد منهجاً ربانياً واضحاً لإرشاد الأمة للاهتمام بواقعها وفقهه حق الفقه والتصرف فى ضوء هذا الفهم لواقعها، وما الناسخ والمنسوخ والمكى والمدنى وأسباب النزول وتنجيم القرآن الكريم على نيف وعشرين سنة إلا جملة من أدلة كثيرة على هذا الاهتمام القرآنى ومراعاة التشريع الربانى لواقع الأمة وقت نزول القرآن .

٥- المتدبر لقصص المرسلين – عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام – التى وردت فى القرآن الكريم يجد فى تعدد شرائعهم وتوحد مقصدهم درس فى فقه واقع الأقوام الذين أُرسلت إليهم الرسل لإصلاح واقعهم وتصحيح مسيرتهم وعلاج أخطائهم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

٦- أن كل عصر له ظروفه وأحواله التى تقتضى من فقهاء الأمة أن يراعوا الواقع الذى يحيا فيه الناس فى عصرهم ولا حرج من أن تدور الفتوى مع المصلحة ولا يخفى على أحد أن فترة الجمود على النص الشرعى من أسوأ الفترات التى مرت على الأمة حيث اتسمت هذه الفترة بالتغافل عن مستجدات العصر وواقع الناس، ولعل من أبرز الأدلة على تطور الفقه ونظرة الفقيه الواعى لواقع أمته منهج الشافعى بالعراق فى مذهبه القديم ثم تعديله بما يتفق مع واقع الناس بمصر فى مذهبه الجديد .

٧- ضرورة الاستفادة من تكامل علوم الشريعة مع علوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة فى فهم حقيقة مسائل الواقع وتعقيداته المختلفة لإصدار الأحكام الشرعية المناسبة لهذه المستجدات وفق نصوص القرآن والسنة .

٨- احتوى القرآن الكريم على حلول لمشاكل الأمة المعاصرة – على نحو ما فصَّل البحث – لكن الأمة تحتاج إلى تدبر لاستنباط الأحكام وإنزال النص الشرعى على واقعها واستخراج الفوائد من الآيات .

٩- على أهل العلم والتدبر استخراج ما وضعه القرآن الكريم من ضوابط وقواعد وبيانها لمتخذى القرار وأهل السياسة ليكون عندهم فقه التعامل مع المجتمعات الأخرى ، والانفتاح المتزن معها وامتلاك مهارات المرونة فى موضع والشدة فى موضع بما يحقق مصالح الأمة لتنال ثمرة هذا الفهم الناتج عن التدبر الواعى لكلام الله عز وجل .

١٠- من فوائد التدبر فيما احتواه القرآن الكريم من إشارات ودلائل فقه الواقع بث روح الطمأنينة فى نفوس المسلمين وبث التفاؤل فى نفوسهم مع ما تعانيه الأمة من تكالب الأعداء عليها وضعف كلمتها وتشتت صفوفها لكن نصر الله آت ، لو صدقنا الله وأحسنَّا الإعداد وأخلصنا النية ووعينا مكر أعدائنا وطبقنا مبدأ الولاء والبراء كما أراد الله تعالى فإن الله ناصرنا كما نصر أسلافنا مع قلة عددهم وضعف عُدَّتهم .

التوصيات :

خلص البحث إلى عدد من التوصيات، يأتى فى مقدمتها :

١- ضرورة إقامة الدورات التدريبية لمن يعملون فى ميدان الدعوة للتأكيد على ضرورة فهم الواقع وأصوله وضوابطه، لإعادة إحيائه فى الأمة خاصة لدى من يتصدون للفتوى فى مجتمعاتهم .

٢- إقامة مؤتمرات دولية يلتقى فيها العلماء من مختلف أرجاء العالم الإسلامى لتفعيل فقه الواقع وتقديم البحوث والمقترحات والخروج بالتوصيات والإجراءات التى تحوِّل هذا الفقه إلى واقع ملموس فى دنيا الناس .

٣- استقطاب طلبة العلم الشرعى أصحاب الكفاءات ورفع مستواهم العلمى من خلال الدورات التى يدرسون فيها الأحكام الشرعية فى مستجدات العصر لربط الفتوى بالواقع وما استجد فيه من وقائع وأحداث .

٤- أهمية الاهتمام بتدبر القرآن وتفسيره بحيث يكون هذا فى خط متوازٍ مع الاهتمام بتحفيظ القرآن للناشئة فى حلقات التحفيظ فأولى خطوات التدبر هى فهم المعانى ووضوحها فى عقل المسلم، فالحفظ مع الفهم أثبت فى العقل وألصق فى الذهن .

ثبت المصادر والمراجع

(مرتبة هجائيا حسب عنوان الكتاب)

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د.ت .

٢- أسباب النزول ،الواحدى ، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م .

٣- أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطى، دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م .

٤- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم ، مكتبة الكليات الأزهرية – مصر، سنة ١٣٨٨هـ .

٥- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ .

٦- أيسر التفاسير، جابر بن موسى أبو بكر الجزائرى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .

٧- البرهان فى علوم القرآن ، الزركشى، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ .

٨- التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربى، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م .

٩- التعريفات ، الجرجانى ، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥ هـ .

١٠- تفسير العز بن عبد السلام ، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار ابن حزم ، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦م .

١١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ناصر السعدى، ١ / ١٨٩، دار السلام، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ .

١٢- جامع البيان فى تأويل آى القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبرى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م .

١٣- خلاصة سير سيد البشر، محب الدين أبي جعفر بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

١٤- سنن النسائى، أحمد بن شعيب النسائي، ورقمه دار الكتب العلمية ،بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ – ١٩٩١ م

١٥- شرح رياض الصالحين ، محمد بن صالح بن عثيمين ، مدار الوطن، الرياض، طبعة سنة ١٤٢٦ هـ .

١٦- شعب الإيمان ، البيهقى ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ .

١٧- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج ، دار الجيل ، بيروت – لبنان .

١٨- العقد الفريد ، أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسى، دار اقرأ، بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م .

١٩- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابورى، دار الكتب العلمية بيروت / لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

٢٠- فقه الواقع بين النظرية والتطبيق، على بن حسن بن على الحلبى،دار النور للنشر، فلسطين، الطبعة الثالثة سنة ١٤٢٠هـ .

٢١- الفوائد، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٣ هـ، ١٩٩٣ م.

٢٢- فى ظلال القرآن ، سيد قطب ، مطبعة الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ م .

٢٣- القاموس الفقهى لغة واصطلاحاً ، سعدى أبو جيب ،دار الفكر،سوريا، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ، ١٩٩٨ م

٢٤- القاموس المبين فى اصطلاحات الأصوليين ، د. محمود حامد عثمان، دار الزاحم – الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢ م .

٢٥- القصص القرآنى عرض وقائع وتحليل أحداث ، د. صلاح الخالدى، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

٢٦- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى .

٢٧- مباحث فى علوم القرآن ، مناع القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

٢٨- معالم التنزيل ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة للنشر، الطبعة الرابعة سنة ١٤١٧هـ .

٢٩- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبرانى، مكتبة العلوم والحكم – الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣ م

٣٠- مفاتيح الغيب ، الفخر الرازى،دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م .

٣١- مفردات فى غريب القرآن ، الحسين بن محمد الأصفهانى، مكتبة نزار مصطفى الباز .

٣٢- مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس، دار الفكر، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م .

٣٣- مناهل العرفان فى علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقانى، دار الفكر – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦

٣٤- المنهاج شرح صحيح مسلم ، النووى ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ .

٣٥- الموافقات فى أصول الشريعة، الشاطبى ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط.ت .

٣٦- الناسخ والمنسوخ ،قتادة بن دعامة السدوسى،مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .

تم بحمد الله وتوفيقه